

# البابُ الثَّادِسُ والعِشرون

## الكتب

### الفصل الاول

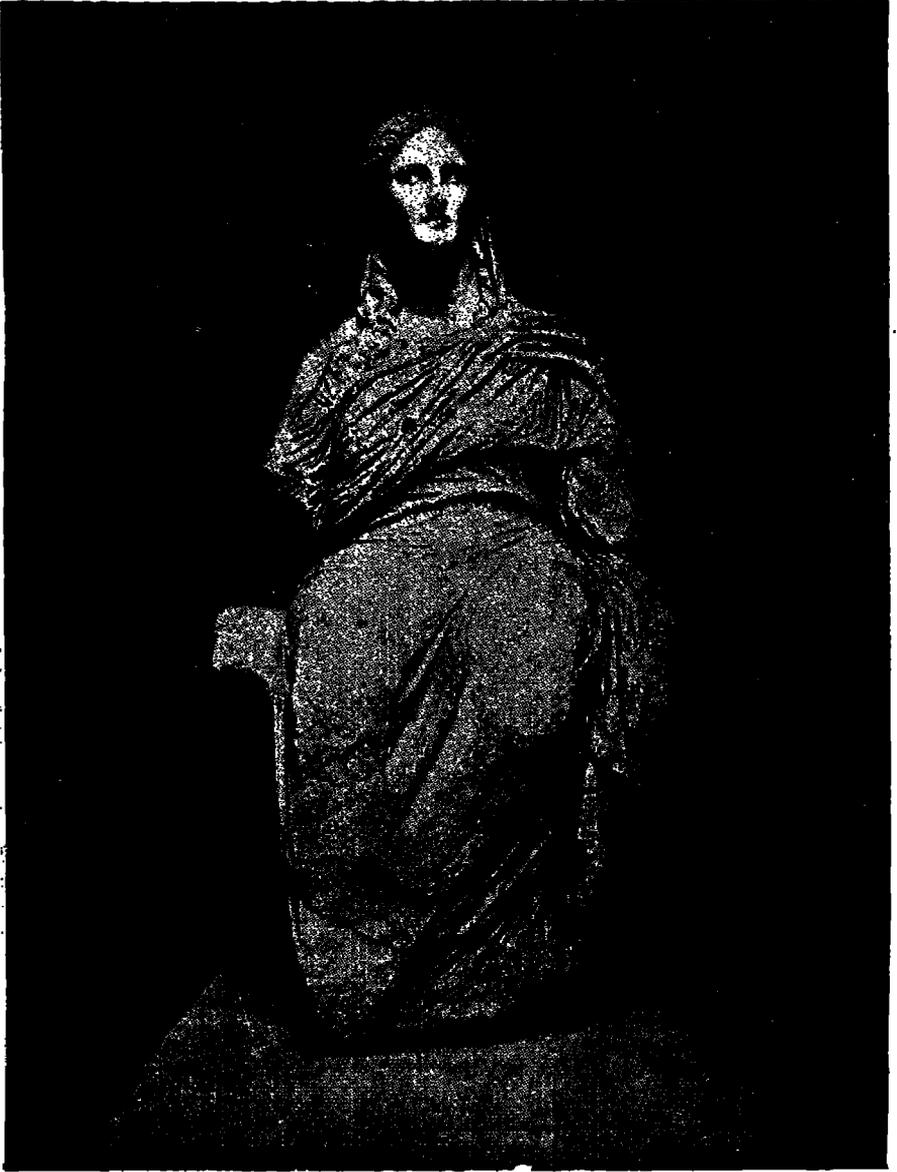
#### دور الكتب والعلماء

في كل ميدان من مبادئ الحياة المهنسية ، عدا ميدان التمثيل ، نجد ظاهرة يعينها - نجد الحضارة اليونانية تنتشر ولا تتقدم . فقد كانت أثينة تحتضر ، وكانت المحلات اليونانية في الغرب ، عدا سرقوسة ، آخذة في الانهيار والزوال ؛ ولكن المدن اليونانية في مصر وفي الشرق كانت في ذروة مجدها المادى والثقافى . وقد كتب يوليوس ، وهو رجل واسع التجارب ، غزير العلم بالتاريخ ، حصيد رأى ، صادق الحكم ، كتب في عام ١٤٨ ق.م عن هذه الأيام « التى تتقدم فيها العلوم والفنون بخطى سريعة<sup>(١)</sup> » ؛ وهى نعمة ألفنا سماعها من غيره من الكتاب . وبفضل انتشار اللغة اليونانية واتخاذها لغة عامة وجدت وحدة ثقافية دامت في بلاد البحر الأبيض المتوسط ما يقرب من ألف عام . فكان جميع المتعلمين في الإمبراطوريات الجديدة يتعلمون اللغة اليونانية ويتخلونها وسيلة للصلات الدبلوماسية ، ولنشر الآداب والعلوم ؛ وكان الكتاب المؤلف باليونانية يفهمه كل متعلم تقريبا من غير أبناء اليونان في مصر والشرق الأدنى . وكان الناس إذا تحدثوا عن العالم المعمور (الأيكومينى oilkonmene) تحدثوا عنه بوصفه عالما ذا حضارة واحدة . قد أصبحت

له نظرة عالية للحياة أقل بعنا للهمم من النظرة القومية الضيقة المتغترسة التي كانت تسود دول المدن ولكنها قد تكون أكثر منها مطابقة لمقتضيات العقل .

ولهذه الدائرة الواسعة من القراء كتب آلاف الكتاب مئات الآلاف من الكتب ، ولدينا أسماء ألف وواثة مؤلف هلنستي ؛ وما من شك في أن من لاتعرف أسماءهم يخطئهم الحصر ؛ ونشأ خض سريع دارج لتسهيل الكتابة ، بل إننا لنسمع في واقع الأمر منذ القرن الرابع عن طرق للاختزال يستطيع بها « التغيير عن بعض الحروف والحركات بشروط مختلفة الأوضاع » . وظلت الكتب تكتب على أوراق البردى المصرى حتى حرم بطليموس الرابع تصدير هذه المادة من مصر لعله يمنع بذلك نمو مكتبة برجموم . ورد يومئذ الثاني على هذا العمل بأن شجع صناعة معالجة جلود الضأن والعجول على نطاق واسع ، وكانت هذه الجلود تستعمل للكتابة في بلاد الشرق من زمن بعيد ، وسرعان ما أصبح الرق المصنوع في برجموم والمشتق اسمه الأوربي parchment من اسمها ينافس الورق بوصفه أداة للتخاطب ونقل الآداب .

وبعد أن تضاعف عدد الكتب إلى هذا الحد أصبح إنشاء دور الكتب ضرورة محتومة . كانت هذه الدور قد قامت في مصر وبلاد النهرين قبل ذلك الوقت ، غير أنها كانت فيهما من وسائل الترف التي يختص بها الملوك ؛ ولكن يبدو أن مكتبة أرسطو كانت أولى مجموعات الكتب الخاصة الكبيرة . وفي وسعنا أن نقدر حجم هذه المكتبة وقيمتها إذا عرفنا أنه دفع ما قيمته ١٨,٠٠٠ ريال أمريكي ثمنا لجزئها الذي اشتراه من اسبيوسهوس خليفة أفلاطون . وأوصى أرسطو بكتبه إلى ثاوفراسطوس ، ثم أوصى بها هذا ( في عام ٢٨٧ ) إلى نليوس Neleus ، ونقلها هذا إلى اسكيسيس في Scepis في آسية الصغرى ، حيث دفنت في باطن الأرض ، كما تقول بعض الروايات ، لتنجو من شره ملوك برجموم العلمى . وبعد أن ظلت هذه الكتب مدفونة على هذا النحو البالغ



( شكل ٥٣ ) ديمتر نيلس ( المتحف البريطاني )

الضرر، بيعت حوالي عام ١٠٠ ق. م. إلى أبلكون Apellicon التيوسى of Teos الفيلسوف الأثيني . ووجد أبلكون أن فقرات كثيرة في الكتب قد أتلفتها رطوبة الأرض ، فكتب منها نسخاً جديدة ، وملاً الثغرات المفقودة بقدر ما هداه إليه تفكيره<sup>(٣)</sup> ؛ وقد يكون هذا هو السبب في أن أرسطو أكثر الفلاسفة جاذبية في التاريخ القديم . ولما استولى سلا Sylla على أثينة عام ٨٦ أخذ مكتبة أبلكون ونقلها إلى رومة ، حيث يحمل أندرنكوس Andronicus العالم الرودسى نصوص مؤلفات أرسطو<sup>(٤)</sup> . ونشر هذه النصوص المسجلة - وكان لهذه الحادثة في تاريخ التفكير الرومانى أثر لا يقل عن أثر يقظة الفلسفة في العصور الوسطى .

وإن قصة هذه المجموعة وتقلها من مكان إلى مكان ليدلانا على ما يدين به الأدب للملك البطالة لإنشأهم مكتبة الإسكندرية العظيمة وجعلها جزءاً من متحفها . لقد بدأ هذه المكتبة بطلميوس الأول وأتمها بطليموس الثانى ، ثم أضاف إليها مكتبة أصغر منها في معبد سرايبس بإحدى ضواحي المدينة . وقد بلغ عدد ما فيها من الملفات قبل نهاية حكم فلدفنس ٥٣٧,٠٠٠ ملف يتكون منها في أكبر الظن مائة ألف كتاب بالمعنى الذى يفهم من هذا اللفظ في هذه الأيام<sup>(٥)</sup> . وظل تكبير هذه المجموعة حيناً من الدهر يتنافس في قلوب ملوك مصر حبه لتقوية سلطانهم . ومن الشواهد الدالة على ذلك أن بطليموس الثالث أمر أن كل كتاب يصل إلى الإسكندرية يجب أن يودع في المكتبة ، وأن تنسخ منه صور تعطى واحدة منها لصاحبه وتحفظ المكتبة بأصل الكتاب . وطلب هذا الملك صاحب السلطان المطلق إلى أثينة أن تعيره مخطوطات إيسكليس ، وسفكليرز ، ويورپديز ، وأودع لديها ما قيمته ٩٠,٠٠٠ ريال أمريكى ضماناً لعودتها سالمة ، فلما أرسلت إليه احتفظ بأصولها ورد إليها نسخاً منها ، وأبلغ الأثينيين أن يحتفظوا بالمال جزاء له على عمله<sup>(٦)</sup> . وانتشرت رغبة

(٨ - قصة الحضارة ، ج ٤ ، مجلد ٢)

الناس في اقتناء الكتب انتشاراً بلغ من اتساعه أن نشأت طائفة من الناس تخصصت في صبغ المخطوطات الحديدية وإتلافها ليبيعوها لحامى النسخ الأولى على أنها كتب قديمة (٧) .

وما لبثت المكتبة أن زادت على المتحف في أهميتها وتعلق الناس بها وأصبح منصب أمين المكتبة أكبر المناصب مرتباً عند الملك ، وصار من اختصاصاته أن يكون المعلم الخاص لولى العهد . وقد بقيت لنا أسماء هؤلاء الأسماء وإن اختلف بعضها عن بعض في المخطوطات المختلفة . ويذكر أحدث ثبت لها أسماء الستة الأسماء الأولين وهم : زودوتس الإفسوسى ، وأبلونيوس الرودى ، وأرتستيز القورينى ، وأبلونيوس الإسكندرى ، وأرسطوفان البيزنطى ، وأرستارخوس السمتراسى ؛ وإن اختلف أصولهم ليوحى مرة أخرى بوحدة الثقافة الهلينية . ولا يكاد يقل عن هذه الأسماء أهمية كلمخوس الشاعر والعالم الذى صنف هذه المجموعة ونظمها في فهرس عام بلغ عدد ملفاته مائة وعشرين ملفاً . وإنا لتطوف بخيالنا صورة طائفة كبيرة من النساخين ، نظن أنهم من العبيد ، ينسخون جوراً ثانية من أصول الكتب القيمة ، ومعهم عدد لا يحصى من العلماء يقسمون هذه الكتب مجموعات . وكان بعض هؤلاء الرجال يكتبون تواريخ مختلف الآداب والعلوم ، وبعضهم يخرجون للناس « طبعات » من الروائع القيمة ، ومنهم من كانوا يكتبون تعليقات وشروحاً للنصوص ليستنير بها غير الإخصائين وقراء الأجيال التالية . وقد أحدث أرسطوفان Aristophanes البيزنطى انقلاباً عظيماً في الأدب بفصل الحمل المستقلة والتبعية في المخطوطات القديمة بعضها عن بعض بالحروف الكبيرة (Capitals) ، وبعلامات الترقيم ، وكان هو الذى اخترع التبرات التى تضابقتنا أشد المضايقة في قراءة الكتابات اليونانية . وقد بدأ زودوتس تهذيب الإلياذة والأوديسة ، وواصل أرسطوفان عمله ، وآتمه أرستارخوس ، وكانت نتيجة عملهم هو النص الحالى لهمايتين اللحميتين ، وهم الذين شرحوا ما غمض فيهما شرحاً يدل على غزارة الاطلاع . ولم يتقصر القرن الثالث حتى

حتى أصبحت الإسكندرية بفضل متحفها ومكتبتها وعلماها العاصمة الذهنية للعالم اليوناني في كل نوع من فروع العلم والأدب عدا الفلسفة .

وما من شك في أن مدناً هلنسية أخرى كانت بها دور كتب ، يدل على ذلك أن علماء الآثار النمساويين قد كشفوا عن بقايا مكتبة جميلة الشكل تابعة لبلدية إفسوس ، ونسمع أن مكتبة عظيمة قد احترقت حين خرب سيو Scipio مدينة قرطاجة . ولكن المكتبة الوحيدة التي يمكن موازنتها بمكتبة الإسكندرية هي مكتبة برجموم : ذلك أن ملوك هذه الدولة القصيرة الأجل كانوا يحصلون حصد المستيرين ملوك البطالة على جهودهم الثقافية ، وقام يومئذ الثاني بإنشاء مكتبة برجموم ، واستقدم لباهاها طائفة من أعظم علماء اليونان . وأخذت مجموعة الكتب التي بها يتمو نمواً سريعاً ، حتى بلغ عددها ، حين أهداها أنطونيوس لكليوباترة ليعوض بها ذلك الجزء من مكتبة الإسكندرية الذي احترق أثناء الثورة على قيصر عام ٤٨ ق . م . مائتي ألف ملف . وبفضل هذه المكتبة ، وما كان للملك برجموم من ذوق أتيكي حسن أصبحت هذه المدينة في أواخر العصر الهلنسي مركزاً لأتني مدرسة من مدارس النثر اليوناني ، وهي مدرسة لم تكن ترى أن لفظاً ما يونانياً نقياً إلا إذا كان قد ورد في كتابات العصر القديم . وتحن مدينون إلى حماسة هؤلاء الأدباء بما بقي من روائع النثر الأتيكي .

ولقد كان هذا العصر أولاً وقبل كل شيء عصر النابهن والعلماء ، عصرًا أصبحت الكتابة فيه مهنة لاهوية ، ونشأت فيه جماعات وحلقات يتناسب تقدير بعضها مواهب البعض الآخر تناسباً عكسياً مع مربع المسافة بينها . وبدأ الشعراء يكتبون للشعراء ، وأضحت كتاباتهم لذلك متكلفة مصطنعة ، وأخذ العلماء يكتبون للعلماء ، فكانت كتاباتهم خالية من البهجة والروعة ، وشعر المفكرون أن إلهام اليونان المبدع كاد ينضب معينة ، وأن أتني خلعة يستطيعون أداءها هي أن يجمعوا ، ويحفظوا ، ويلونوا ، ويشرحوا الأعمال الأدبية التي أنشأها

عصر أسمى وأعظم جرأة من عصرهم . لذلك أوجدوا طرق نقد النصوص والآداب بجميع أشكاله تقريباً ، وحاولوا أن يستخرجوا خلاصة المخطوطات الكثيرة التي كانت بين أيديهم ، وأن يرشدوا الناس إلى ما يجب أن يقرؤوه منها ، فوضعوا قوائم « بأحسن الكتب » و « شعراء البطولة الأربعة » والتسبعة المؤرخين » و « العشرة الشعراء الغنائيين » و « العشرة الخطباء » وما إلى هذا (٩) .

وألّفوا سيرا لكبار الكتاب والعلماء ، وجمعوا وأنجوا من الدمار المعلوم المشتتة التي لانعرف الآن غيرها عن هؤلاء الرجال . وكتبوا خلاصات في التاريخ ، والآداب ، والتمثيل ، والعلم والفلسفة (١٠) ؛ وقد ساعدت بعض هذه الخلاصات التي كانت أشبه « بالطرق المختصرة للمعرفة » على حفظ المؤلفات الأصلية التي نحصتها ، وإن كان بعضها قد حل محلها وقضى بغير علم واضعها على هذه المؤلفات . وأقضى مضاجع العلماء الملمستين تدهور اللغة اليونانية الأتكية الفصحى وحلول الرطانة اليونانية الشرقية المنتشرة في ذلك الوقت محلها ، فأخذوا يضعون المعاجم وكتب النحو ؛ وأصدرت مكتبة الإسكندرية ، كما يفعل الجمع العلمي الفرنسي في هذه الأيام ، قرارات تبين الاستعمال الصحيح للألفاظ والعبارات اليونانية القديمة . ولولا جد هؤلاء العلماء وصبرهم لقضت الحروب ، والثورات ، والكوارث التي توالى على هذا الجزء من العالم مدى أثنى عام ؛ على هذه « الشنرات الثمينة » التي انتقلت إلينا من حطام التراث اليوناني القديم .

## الفصل الثاني

### كتب اليهود

لقد احتفظ اليهود وسط هذا الجو المضطرب الذي لف ذلك العصر بمحبه التقليدي للبحث العلمي ، وأخرجوا أكثر من نصيبهم من الأدب الخالد الذي أخرج في ذلك العصر . وإلى ذلك العصر تنتمي طائفة من أجل أجزاء التوراة فقد ألف شاعر يهودي ( أو ألفت شاعرة يهودية ) قبيل اختتام القرن الثالث نشيد الإنشاد الجميل : في هذا النشيد كل ما حواه السفر اليوناني من سافور إلى ثاوفريطوس من روعة فنية ، ولكن فيه فوق هذا ما لا يمكن العثور عليه عند أى مؤلف من مؤلفي ذلك العصر - فيه قوة الخيال ، وعمق في الشعور ، وإخلاص مثالي ، حوى من القوة ما يكفي للترحيب بجسم الحب وروحه ، وأن يبدل الجسم نفسه روحاً . وقد كتب اليهود الهلنستيون وقتئذ - بالعبرية أو الآرامية أو اليونانية - روائع خالدة كأسفار الجامعة ، ودانيال ، وأجزاء من الأمثال ، والمزامير ، والجزء الأكبر من الأسفار الإيوكريفية ، كتبوا بعضها في أورشليم ، ومعظمها في الإسكندرية ، وبعضها الآخر في غيرها من مدائن شرق البحر الأبيض المتوسط . وكتبوا تواريخ كسفر الأخنوخ وقصصاً صغيرة كاستر ويهوديت ، وأناشيد للأسر كسفر طوييت . وحول كبار العلماء الكتابة العبرية من النمط الآشوري القديم إلى النمط السورى المربع احتفظت به إلى اليوم (١١) . وإذا كان معظم اليهود في بلاد الشرق الأدنى يتكلمون وقتئذ الآرامية بدل العبرية ، فقد أخذ علماءهم يفسرون لهم الكتاب المقدس بترجمته إلى الآرامية ، وافتتحت المدارس لدراسة أسفار موسى ، والشريعة ، وتفسير القوانين الأخلاقية للشبان الناشئين . وانتقلت هذه الشروح

والتعليقات ، والإيضاحات من المعلم إلى الطالب جيلاً بعد جيل ، فكان منها في العصور التالية معظم المادة التي اجتواها التلمود .

وقبل أن يختم القرن الثالث كان علماء المجمع العظيم قد فرغوا من نشر الأدب القديم كله وانتهوا من كتب العهد القديم (١٢) . وقد حكموا في ذلك الوقت أن عصر الأنبياء قد انقضى وأن الزحى اللفظي قد انتهى زمنه ، وكانت نتيجة هذا الحكم أن كثيراً مما كتب في ذلك العصر وإن كان مليئاً بالحكمة والجمال لم تتح له فرصة السند الإلهي ، فكان نصيبه أن يصبح جزءاً من أسفار الأپكريفا المنكودة(\*) . ولعل بعض أسفارها مدينة بروعتها الأدبية إلى براعة المترجمين في عهد الملك جيمس ، ولكن هؤلاء المترجمين لا يمكن أن يكونوا أصحاب الفضل في تلك العبارات المؤثرة التي تصف سوآلاً للملك أوريل أن يفسر كيف يفلح الخبيثون ويعذب الصالحون ؟ وكيف تكون لإسرائيل أسيرة ذليلة ، فيجيب الملك ، بتشبهات ومجازات قوية ولكن في عبارات سهلة بسيطة أن ليس من حق الجزء أن يفهم الكل أو يحكم عليه .

وتقول مقدمة سفر الحكمة إن هذا السفر ترجمة يونانية تمت في عام ١٣٢ لأحاديث باللغة العبرية كتبها يسوع بن سيراك جد المترجم قبل ذلك الوقت

---

(\*) أسفار الأپكريفا ( ومعناها الحرف الخفية ) في العهد القديم هي الأسفار التي سبقت من النص اليهودي للعهد القديم الموصى به ، ولكنها اشتملت عليها النسخة الكاثوليكية للكتاب المقدس ، أي الترجمة اللاتينية التي قام بها القديس جيروم للنصوص العبرية واليونانية . وأهم أسفار الأپكريفا في العهد القديم هي سفر الحكمة ، وسفر المكابيين الأول والثاني ، أما أسفار الرؤيا ( أي الوحي ) فهي التي يقولون إنها تحتوي على الوحي والتنبؤات الإلهية ؛ وقد بدأ ظهور هذه الكتابات الأخيرة حوالي عام ٢٥٠ ق . م . واستمرت إلى العهد المسيحي . وتعد بعض أسفار الرؤيا كسفر أشوخ أپكريفية غير معترف بصحتها ، ويعد بعضها الآخر كسفر الرؤيا صحيحاً معترفاً بصحته .

ببجيلين. وكان يسوع بن سيراك هذا عالماً ورجلاً من رجال الأعمال ، رأى بعض أحوال العالم في خلال أسفاره ثم استقر في بلده واتخذ منزله مدرسة للطلاب ، وألقى عليهم هذه الأحاديث يبين لهم فيها حكمة الحياة (١٣) . وهو يندد فيها بأغنياء اليهود الذين خرجوا على دينهم ليكون لهم شأن في عالم الكفار ؛ ويحذر الشباب من العاهرات الواقفات لهم بالمهرصاد في كل مكان ، ويعرض عليهم شريعة موسى ويصفها بأنها لا تزال خير هاد لهم وسط شرور العالم ومزالقه . ولكنه ليس بالرجل المتزمت في دينه فلا ينجو نحو « المتقين » بل يجد كلمة طيبة يقولها ليدخل بها السرور البريء على قلب محدثه ، وهو يندد بالمثقفين الذين يرفضون الدواء بحجة أن المرض مرسل من عند الله ، وأنه لذلك لا يشفيه إلا الله وحده . والكتاب مليء بالحكم أشهرها كلها الحكمة التي تجمع بين الطفل والعصا . ويقول رينان Renan إن « الشياطين التي يبررها ضاربوها بهذه الحكمة ليخطئها الحصر بلا ريب (١٤) » . والحق أن هذا السفر عظيم وأنه أكثر حكمة ورافة من سفر الجامعة .

وقد ورد في الإصحاح الرابع والعشرين من سفر الحكمة أن « الحكمة أول ما أوجده الله ، فقد خلقها من بداية العالم » . وفي هذا الإصحاح وفي الإصحاح الأول من سفر الأمثال نجد أقدم صورة من صور نظرية « الكلمة » أي الحكمة .. بوصفها خالقا وسطا « عهد إليها الله تنظيم العالم . وتشخيص الحكمة بهذه الصورة أي جعلها ذكاء مجسداً يصبح من المبادئ الرئيسية ذات الشأن في الدين اليهودي خلال القرون السابقة لظهور المسيح مباشرة . وإلى جانب هذا ترى فكرة الخلود الشخصي تزداد وضوحاً شيئاً فشيئاً . وفي كتاب أخنوخ الذي كتبه على ما يظهر عدد من الكتاب المختلفين في فلسطين بين عامي ١٧٥ ، ٦٦ قبل الميلاد يصبح الأمل في ملكوت السموات حاجة أساسية ؛ وسبب ذلك أن ما يناله الأشرار من خير وفلاح وما يلقاه الأتقياء والصالحون والأوفياء من سوء المصير لم يعد يستطيع تحمله إلا إذا عمرت صدور الناس.

يهذا الأمل . وقد يدا للناس أن الحياة والتاريخ إذا تجردا من هذا الأمل كاتا من عمل الشيطان لا من فعل الله . وسينزل مسيح يقيم مملكة السماء في الأرض . ويجزى المتقين بالسعادة السرمدية بعد الموت .

ويعبر سفر دانيال عما كان يسود عهد أنتيوخوس الرابع من هولاء ويرعب . فقد حدث حوار الى عام ١٦٦ حينما كان المؤمنون يعلمون ويقتلون وتمسكهم بدينهم ، وكان الأعداء المتزايدين يهاجون المكابيين ، أن أخذ أحد «المتقين» على الأرجح على نفسه أن يستثير شجاعة الشعب بأن يصف له ما لاقاه دانيال من العذاب ، وما نطق به من الكتب في بابل أيام نبوخذنصر . وقد اولت أيدي اليهود في السر نسخاً من هذا الكتاب ، وقيل عنه إنه من وضع نبي من الأنبياء عاش قبل ذلك العهد بثلاثة وسبعين عاماً ، وإنه لاقى ألواناً من العذاب أشد مما لاقاه أى يهودى في عهد أنتيوخوس ، وإنه خرج منها ظافراً ، وتنبأ بأن شعبه سينال من النصر مثل ما ناله هو ، وقال إنه إذا كان الصالحون والمؤمنون لم يلقوا ما هم خليون به من السعادة في هذا العالم ، فسوف يتألون جزاءهم الأوفى يوم الحساب ، حين يدخلهم الله في ملكوت السموات ليجمعوا فيها بالسعادة السرمدية ويلقى بمن عذبوهم في الجحيم الأبدى .

وجملة القول أن ما نبي من كتابات اليهود في ذلك العهد يمكن وصفه بأنه أدب صوفى خيالى يهدف الى تعليمهم وتقوية روحهم ومواساتهم . لقد كانت الحياة نفسها كافية لليهود الذين عاشوا قبل ذلك العهد ، ولم يكن الدين وقتئذ طريقاً للفرار من العالم ، بل كان تمثيلاً مسرحياً للأخلاق . يشيهر الإيمان ، يصور لهم لها قدراً يحكم كل شىء ويرى كل شىء ، يثيب على الفضيلة ويعاقب على الرذيلة في هذه الحياة الدنيا . ثم زرع «الأسر» هذه العقيدة ، وجددها لإعادة بناء الهيكل ، ثم حطمتها ضربات أنتيوخوس . ووجهد التشاؤم الآن الميدان فسيحاً أمامه ؛ ورأى اليهود في كتابات اليونان أفصح تعبير عن

مظالم الحياة ومآسيها . وكان اتصال اليهود في هذه الأثناء بأفكار الفرس عن الجنة والنار ، وعن الكفاح بين الخير والشر ، وانتصار الخير في آخر الأمر ، كان هذا كله مما يسر لهم الفرار من فلسفة اليأس ؛ ولعل أفكار الخلود التي انتقلت من مصر إلى الإسكندرية ، والأفكار التي قامت عليها طقوس اليونان الخفية ، أهل هذه وتلك قد تعاونت على أن تبعث في قلوب اليهود في العصرين اليوناني والروماني ذلك الأمل الذي أبقى على كيانهم خلال الحوادث التي مرت باشيكل والدولة . ومن هؤلاء اليهود ، ومن المصريين ، والفرس ، واليونان ، سرت فكرة الثواب والعقاب الأبديين إلى دين جديد أقوى من دين اليهود ، وأعانت هذا الدين على أن يضم تحت لوائه عالما كان سائراً في طريق الانحلال .



## الفصل الثالث

### مناظر

بلغ التمثيل في ذلك العهد ، كما بلغ غيره من الفنون ، ذروته من حيث كمية الإنتاج ، ولقد كان لكل مدينة بل كاد يكوى لكل بلدة في المرتبة الثالثة دار للتمثيل . وكان الممثلون أحسن تنظيماً مما كانوا في أى عصر سابق ، وكان الطلب عليهم كثيراً ، وكانوا يتألون أجوراً عالية ، ويعيشون من الناحية الخلقية عيشة أرفق من أهل زمانهم . وظل كتاب المسرحيات يكتبون المأسى ، ولكن الدهر أسبل عليهم ثوب النسيان ، سواء كان ذلك من قبيل المصادفات أو كان سببه ارتقاء أذواق الناس . لكن مزاج أثينة الهلنستية ، كمزاج هذه الأيام ، كان يفضل قصص المسلاة الحديثة ، الخفيفة الروح ، الزقة ، العاطفية ، ذات الخاتمة المفرحة . ولم يبق من هذه أيضاً إلا قطع متفرقة ولكن لدينا نماذج منها غير مشجعة في مجتلسات بلوتس Plautus وترنس Terence اللذين ألفا مسرحياتهما بترجمة المسالى الهلنستية وتحويرها . وقد أغفلت في المسالى الجديدة شئون الدولة وشئون الروح العليا التي ألهمت أرسطوفان لأن كتابة هذه المسالى كانت أكثر مما تتحملة طاقة الكتاب الأدبية ؛ وكان موضوعها في العادة مأخوذاً من المنزل أو الحياة الخاصة ، يتعقب الطرق المتتوية التي ترفع بها النساء إلى منزلة الكرامة وتؤدى بالرجال مع ذلك إلى الزواج . وترى فيها الحب يسير في طريق النصر لكى يصبح أهم شيء على المسرح ؛ وترى مئات الفتيات حائرات بائسات على المسرح ولكنهن ينلن الشرف ويحصلن على لأزواج في آخر المسرحية . ولم يبق وجود للملابس القديمة التي كانت تمثل فيها أعضاء الذكور ، ولا للخلاعة والفجور الأولين ؛ بل كانت تدور القصة في مجال ضيق حول عذرة السيدة

المهمة فيها ، ولم يكن للفضيلة فيها شأن كبير كشأنها في الصحف اليومية في هذه الأيام . وإذ كان الممثلون يلبسون أقنعة ، وكان عدد الأقنعة محدوداً ، فإن كاتب المسلاة كان يحيك حيكته وما فيها من دسائس وخطأ في هوية أشخاص المسرحية حول عدد قليل من الأشخاص البلهاء كان يسر النظارة على الدوام أن يميزوهم بعضهم من بعض . وكانت الشخصيات التي تتكرر باستمرار هي شخصية الأب القاسى ، والشيخ الهرم ، الحير ، والابن المتلاف ، والوارثة التي يخطئ الناس فيظنونها فقيرة ، والحندى الصمخاب ، والعبد الحاذق ، والمتملق ، والطفيل ، والطبيب ، والقس ، والفيلسوف ، والطاهى ، والعشيقة ، والقواد .

وكان رافعا علم هذه المسلاة الأخلاقية في أئينة في القرن الثالث هما فلمون و **Philemon** و **Menander** . فأما فلمون فلا يكاد يبق لنا من آثاره شيء سوى صدى شهرته ، وكان الأثينيون يحبونه أكثر مما يحبون مناندر ، وقد منحوا أولها من الجوائز أكثر مما منحوا الآخر ؛ ولكن فلمون ارتفع بفن تنظيم المصنفين الأجورين في دار التمثيل إلى ذروته ؛ وإذ كانت الأجيال المقبلة قد أغفل أمرها ولم يحسب لها حساب في تلك الأجور ، فإنها لم تأخذ بحكم هؤلاء المصنفين وقلبتهم ظهرأ لبطن ، ووضعت التاج على عظام مناندر . وكان هذا المؤلف المسرحى الذى يماثل كجريف **Cogreve** في العصر الحديث ابن أخ كاتب مسرحى آخر غزير الإنتاج هو الكسيس الثورى **Alexis of Thuri** تلميذ ثاوفراسطوس وصديق أبيقور . وقد تعلم من أستاذه وصديقه أسرار المسرحيات ، والفلسفة ، وهدوء النفس ، وكاد أن يحقق مثل أرسطو الأعلى ؛ فقد كان جميلاً ، ثرياً ، يفكر في الحياة في هدوء وحسن إدراك ، ويستمتع بملاذها استمتاع الرجل المهذب . وكان عاشقاً متقلباً ، قنع بأن يجزى جلسراً **Glycera** على حبها وإخلاصها له بأن يمس اسمها بعضا الخلود السحرية . ولما عاه بطليموس الأول إلى الإسكندرية بعث فلمون بدلا منه وقال : « إن فلمون

ليست له جلسرا . وسرت جلسرا بذلك أيما سرور ، وكانت قد قاست كثيراً بانتصارها على ملك من الملوك (١٥) . ويؤكد لنا رواية أخباره أنه عاش معها بعد ذلك الوقت وأخلص لها حتى مات في الثانية والخمسين من عمره باعتقال العضلات بينما كان يستحم في بيرية (٢٩٢) (١٦) .

وظهرت مسرحيته الأولى في السنة التي أعقبت وفاة الإسكندر ، كأنها يظهرها في تلك السنة تعلن بداية عهد جديد . وكتب بعد ذلك العام مائة مسلاة وأربعاً ، نالت ثمان منها الجائزة الأولى . وقد بقي من هذه المسرحيات نحو أربعة آلاف سطر كلها قطع منها قصيرة متفرقة ماعدا بردية عشر عليها في مصر عام ١٩٠٥ . وتحتوي هذه البردية على نصف مسلاة المحكمين Epitrepontes وقد هبطت بسمعة مناندر . ولو أننا شكونا من أن موضوعات هذه المسالى مسئمة كموضوعات فنون النحت ، والعمارة ، والحزف اليونانية ، للدهبت شكوانا هذه مع الريح ؛ بل ينبغي لنا أن نذكر أن اليونان لم يكونوا يحكمون على المسرحية بالقصة التي تقصها - وهو معيار خليق بالأطفال - بل بالطريقة التي تقصها بها . ومن أجل هذا كان ما يعجب به العقل اليوناني في مناندر هو أسلوبه الأنيق المصقول ، والفلسفة المركزة في فكاهته ، وتصوير المناظر العادية تصويراً بلغ من واقعيتها أن صاح أرسطوفان البيزنطي متسائلاً: أي مناندر ، وأنت أيها الحياة ، ترى أيكما يقلد الآخر ، (١٧) وكان مناندر يرى أنه لم يبق للإنسان شيء في هذا العالم الذي ضاع تحت أقدام الجنود إلا أن يفكر في شئون البشر تفكير الناظر إليها وهو خارج عنها ، يعطف عليها من غير أن يتورط فيها . وهو يلاحظ غرور النساء وتقلبن ، ولكنه يسلم بأن الزوجة العادية نعمة من أجل النعم . وتلور فكرة المحكمين في بعض أجزائها على رفض المعيار المزدوج (١٨) ؛ ويلدور موضوع إحدى المسرحيات بطبيعة الحال حول عاهر مخلص ترفض كما ترفض ذات الكيليا دوماس ، الرجل الذي تحبه ، لكي تتمكن من أن يتزوج زواجا محترماً بسيدة يجنى من وراء

زواجه بها نفعا<sup>(١٧)</sup> . وفي بعض القطع الباقية من المسرحيات سطور جرت  
بجري الأمثال ، منها قوله : « إن أخبار السوء تفسد الخلق الطيب » ( وقد نقلها  
القديس بولس )<sup>(٢٠)</sup> ، و « الضمير الحر يخلق من الجبناء رجلا بواسل »<sup>(٢١)</sup> .  
ومن الناس من يعزو إلى متاندر أصل قول ترنس الشهير : « لى رجل ،  
ولا أرى شيئا من مستلزمات الرجولة غريبا عنى » . وتعر في كتاباته أحيانا  
على لآء من الفطنة والفراسة كقوله : « كل شيء يموت إنما يموت  
بما يعتره من فساد ؛ وكل ما يفسد يفسد من الداخل » وكهذه الأبيات التي  
تعد أنموذجا صادقا لشعر مناندر ، والتي يتنبأ فيها بموته المبكر :

إن الذين تحبهم الآلهة يموتون صغارا ؛ طوبى للرجل

الذى يرى في اطمئنان هذا المركب الرهيب

مركب الشمس ، والنجوم ، والبحر ، والنار ، ثم يعود بعد ذلك  
مسرعاً إلى بيته وقلبه مطمئن لم يمسه سوء .

وسواء كانت الحياة قصيرة أو طويلة فإنك بلا ريب

يا برمينو لن ترى شيئا أحسن

من هذه الأشياء ، إذن فاتخذ مقامك هنا كما

لو كنت ممن يترددون على دور التمثيل أو الأعراس .

كلما أسرعت كان ذلك أضمن لراحتك .

سوف تعود مزوداً بأحسن زاد ، لا عدولك ، قويا عند الحاجة ؛

أما من يبطل في سيقضى في الطريق منهوك القوى ، تثقله السنون ،

ويلاحقه الأعداء الذين تولبهم عليه متاعب الحياة النكدية ؛

وهكذا يموت أسوأ ميتة من يبطل عليه الموت .

## الفصل الرابع

### ثاوقريطوس

ماتت المسلاة اليونانية ، ومات الأدب الأثيني إلى حد كبير ، بموت فليمون عام ٢٦٢ . نعم إن المسرح قد ازدهر ولكنه لم ينتج من الروائع ما رأي الزمان أو العلماء أنه خليق بالبقاء ، وأخذ تكرر المسالى القديمة - وخاصة مسالى فليمون ومناندر - يطرد من هذه المسارح التمثيليات المبتكرة . ولما انقضى القرن الثالث خفت معه روح المجتمع المرح التي أوجدت المسلاة الجديدة وحلت محلها في أثينة الزعة الجدية التي كانت من خصائص المدرسة الفلسفية . وحاولت مدن أخرى وخاصة مدينة الإسكندرية أن تنقل إليها غروس فن التمثيل ولكنها لم توفق .

وجدت المكتبة الكبرى والعلماء الذين اجتذبهم إليها نفحة الأدب الإسكندري . فكان لأبد للكاتب أن تتفق مع أذواق القراء المتعلمين الناقدين التي « سفسطها » العلم والتاريخ . وحتى الشعر نفسه أضحي شعرا علميا وحاول أن يستر ما فيه من ضعف الخيال بالإشارات الغامضة والتلاعب الدقيق بالألفاظ . وأخذ كلمكس يكتب تراويل ميثة لآلهة ميثة ، ونكات شعرية طريفة تلتمع يوما واحدا ، ومدائح تم عن فطنة وروية مثل خصلة برنيس *The Lock of Bernice* وقصيلة إرشادية عن *الأوسباب (Aitia)* وهي قصيدة تحتوي على كثير من المعارف العلمية في الجغرافية ، والأساطير ، والتاريخ ، وعلى قصة من أقدم قصص الحب في الأدب . ومضمون هذه القصة أن بطلها أكنتيوس *Acontius* فتى بارع الجمال إلى درجة لا يصدقها العقل ، وأن سيدتي *Cydippe* ذات جمال مفرط ؛ ويلتقى الفتى والفتاة فيتحابان من أول نظرة ، ويقف في سبيل هذا الحب أبواهما الشرهان الحبان للمال ، فهتداهما .

تلك هي القصة التي رواها ملايين من الشعراء والقاصيين منذ ذلك العهد ،  
والتي سيظل يرونها ملايين آخرون من هولاء وأولئك في مستقبل الأيام .  
غير أننا نجد بنا أن نضيف إلى هذا أن كلمكس يعود في إحدى مقطوعاته  
إلى الأذواق اليونانية المألوفة :

اشرب الآن وأحب يا ديمقراطيس Democrates ؛ لأننا  
لن نجد بعد خراً أو غلماناً إلى أبد الآبدين (٢٤) .

وكان منافسه الوحيد في القرن الذي عاش فيه هو تلميذه أبلونيوس  
الروديسي . ولما أن سطا هذا التلميذ على أشعار أستاذه ونافسه عند البطالة ،  
أخذ الرجلان يتنازعان بالعمل وبالكتابة تنازعا أدى إلى عودة أبلونيوس إلى  
رودس ، حيث برهن على شجاعته بأن كتب في عصر يفضل الإنجاز على  
الإطناب ملحمة متوسطة القبينة هي ملحمة الأرجو نوتكا Argonautica .  
ولم تنل هذه الملحمة من عناية كلمكس أكثر من نكتة شعرية قصيرة هي قوله :  
« إن الكتاب الكبير شر مستطير » - وهو قول يستطيع القارئ أن يجد شاهداً  
عليه في الكتاب الذي يتن يديه . وكوفي أبلونيوس على عمله في آخر الأمر  
فنال المنصب الذي كان يطمح فيه وهو منصب أمين مكتبة الإسكندرية ،  
وأفلق فوق هذا في إقناع بعض معاصريه أن يقرؤوا ملحمة . ولا تزال هذه  
الملحمة باقية إلى الآن ، وفيها دراسة فلسفية ممتازة لحب ميديا ، ولكنها ليست  
من الملاحم التي لا غنى عنها لطالب العلم الحديث (\*) .

وتتم نشأة شعر الرعاة عن قيام حضارة مدنية غير ريفية ، ويكاد هذا الشعر  
أن يجاري تلك الحضارة خطوة فخطوة . ذلك أن اليونان في القرون الأولى من  
تاريخهم لم يقولوا إلا النزر اليسير عن جمال الريف لأن معظمهم كانوا يعيشون  
من قبل إما في الضياع نفسها أو قريين منها ، وكانوا يعرفون ما في الحياة

---

(\*) وقد نسج فرجيل في الإلياذة حل نواها في شكلها ، وفي مادتها أحياناً ، وحكاها  
حياناً سطرًا سطرًا .

الريفية وعزلتها من صعب ، كما يعرفون ما فيها من هدوء وجمال . وما من شك في أن إسكندرية البطالمة كانت حارة ممتربة كإسكندرية هذه الأيام ، ولهذا فلإن من كان يقيم فيها من اليونان كانوا يعودون بذكرياتهم إلى تلال بلادهم الأصيلة وحقولها ، ويتخيلون هذه التلال والحقول المثل الأعلى في جمال المنظر ؛ فكانت المدينة العظيمة والحالة هذه هي المكان الموحى بالشعر الرعوى . وأقبل عليها حوالي عام ٢٧٦ شاب جرىء يحمل ذلك الاسم الطريف وهو ثاو قريطوس . وكان قد بدأ حياته في صقلية ، وقضى بعدئذ جزءاً منها في كوس ، ثم عاد إلى سر قوسة يسعى إلى رقد هيرودس الثاني ، ولكنه لم يوفق ؛ غير أنه لم ينس قط جمال صقلية ، وجبالها وأزهارها ، وسواحلها وخبجاتها ، فلما انتقل بعدئذ إلى الإسكندرية أنشأ قصيدة في مدح بطليموس الثاني نال عليها رضاء البلاط وهو رضاء قصير الأجل . ويبدو أنه ظل يضع سنين يعيش بين رجال البلاط والعلماء ، بينما كانت الصوز الجميلة التي يرسمها لحياة الجبال تحببه إلى سوفسطائي العاصمة . وتصف قصيدته بركسنوا Praxinoa ما يلقاه الإنسان في شوارع الإسكندرية المزدهجة من هول وفرع :

رباه : ما أكثر أولئك الغوغاء ! ليس في وسعي أن أتصور

كيف نستطيع أن نشق طريقنا ، أو كم من الزمن يلزمنا لكي نشقه فيها ؛

إن عش النمل لا يعد شيئاً إلى جانب هذا المهرج والمرج . . .

أي جرجون Gorgon ، يا عزيزي ؛ أنظر ! - ماذا في مقدورنا أن نفعل ؟

أولئك هم فرسان الملك ! لا تطومونا بسنابك خيولكم !

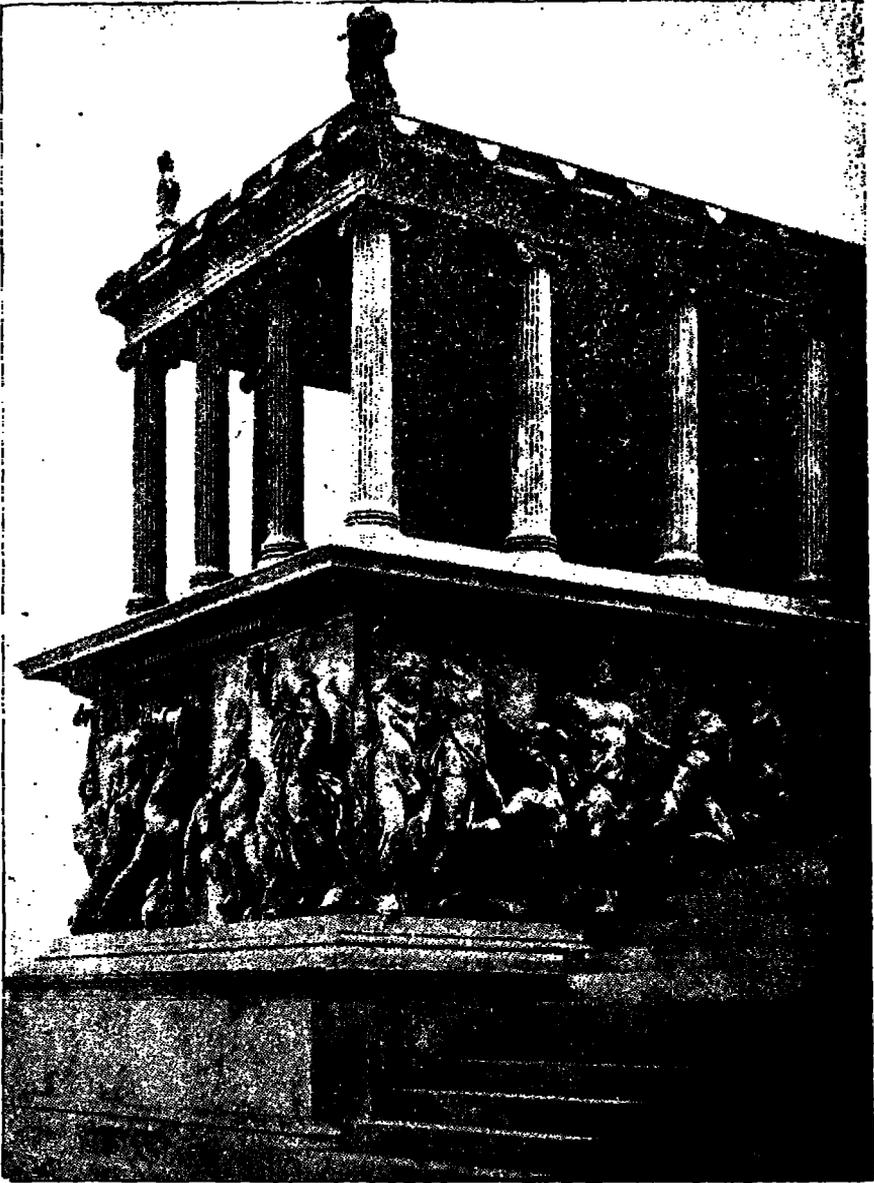
أونوا Eunoia ، تنحى عن طريقهم (٣٦) !

وكيف يستطيع رجل له نفس شاعر وذكريات صقلية أن يكون سعيداً في

هذه البيتة ؟ لقد كان يمدح الملك لكي يستطيع العيش ، ولكنه كان يغذى رومة

بما في مخيلته من صور جزيرته الأصلية ، ولعله كان يغذيها أيضاً بصور جزيرة

كوس ؛ وكان يجسد الراعي على حياته البسيطة ويتخيله وهو يخطو وراء قطعانه



( شكل ٥٤ ) مذبح زيوس في برجوم معاد . ( متحف الدولة ببرلين )

( ٩ - قصة الحضارة ، ج ٣ ، مجلد ٢ )

المادئة الوديدة فوق منحدرات التلال المعشوشبة المطلة على البحار المشمسة . وقد أمّ وهو في هذه الحالة نشيد الرعاة - الإيدليون *eidyllion* أو الصورة الصغيرة - ووصفه ذلك الوصف الذي لا يزال محتفظاً به إلى الآن ، وهو نقش رينى أو قصة شعرية . وليس في الاثنتين والثلاثين مقطوعة التي وصلت إلينا من أشعار ثاقوريطوس إلا عشرة أناشيد رعوية ، ولكن هذه الأناشيد العشرة قد طبعت ذلك الاسم الذى يشملها جميعاً بطابع نصف رينى . وبهذه الأناشيد يدخل وصف الطبيعة آخر الأمر في الأدب اليونانى ، وهو لا يتدخله دخول الإلهة فحسب ، بل يدخله كذلك دخول معالم الأرض الحية المحيية إلى النفوس . ولم ينقل الأدب اليونانى قبل ذلك العهد ، يمثل هذا الشعور الحى ، الإحساس الخلقى بالصلة التي تربط في النفس حب الصخور والحداول ، والماء والأرض والسما ، والاعتراف بفضلها على بنى الإنسان .

يبد أن موضوعاً آخر يتقد في قلب ثاقوريطوس إلى أعماق أبعد من التي يتقد إليها الشعر الرعوى - ذلك هو موضوع الحب . ولكنه وهو لا يزال يونانياً رغم بعده عن بلاد اليونان ، ينشئ أغنيتين شعريتين ( الثانية عشرة والتاسعة والعشرين ) في الصداقة الجنسية بين الغلمان ، ويقص قصصاً واضحة جياشاً بالعاطفة قصة هرقل وهيلاس *Hyias* ( الأغنية الثالثة عشرة ) ، وكيف قاوم الجبار وحشية الأسد ، وأحب شاباً ، وعلمه ، كما يعلم الأب ابنه ، كل ما يستطيع به أن يكون رجلاً طيباً ذائع الصيت ؛ ولم يكن يفارق الغلام في مطلع الفجر ، أو وقت الظهيرة أو في المساء ، ولكنه كان يعمل دائماً على أن يشكله بالصورة التي يجب من صميم قلبه أن يكون عليها ، وأن يجعله رفيقه الحقيقى ، يماثله في أعماله العظيمة . وثمة أنشودة أشهر من الأناشيد السابقة ( الأناشيد رقم ١ ) وهي التي تبيد على مسامعنا قصة دفتيس *Daphnis* لاسنكسورس الراعى الصقلى الذى زمر وغنى زميراً وأغاني بلغ من جاملها أن جعلته الأقايصيص

الخرافية مخترع شعر رعاة البقر . وخلاصة القصة أن دفنيس ظل وقتاً ما يراقب قطعانه ، ويحسدها على مرحها وحبها ، حتى إذا ما نبتت الشعرة الأولى على شفته هامت بجبه إحدى جور الغاب المقدسات . ، وتزوجت به . ولكنها تقاضت منه ثمن حبها بأن جعلته يقسم ألا يحب قط امرأة غيرها . وحاول جهده أن ير بقسمه وأفلح في هذا إلى أن افتتنت ابنة أحد الملوك بشبابه وأسلمت نفسها له في الحقول . وأبصرت هذا أفرديتي ، وانتقمت لزميلتها الإلهة بأن جعلت دفنيس يذوب قلبه وجسمه من الحب غير المستجاب . فلما مات أوصى بمزمارة إلى بان pan في أغنية يضيف إليها صاحب القصة قراراً موسيقياً يردده بعد كل مقطوعة في الأغنية :

« أقبل يا سيدي ؛ وخذ هذا المزمارة الجميل  
المغمور في الشمع الذي لا تزال تفوح منه رائحة الشهد  
والمربوط عند الشفتين بالخيط . ذلك أن حبي قد أقبل  
ليناديني إلى بيت الأموات » .

ياربات الشعر أقملي ، أقملي عن نشيد الرعاة  
« والآن فليخرج العوسج والحسك أزهار ،  
البنفسج ؛ وليزهر الرجس ،  
فوق العرعر ؛ ولتتكب كل الأشياء طريقها السوى .  
وليثمر الصنوبر الكثرى ، لأن دفنيس سوف يموت .  
ولتطارد الوعول كلاب الصيد ، وليطرد البوم الناعق  
البنديب من التلال »

ياربات الشعر أقملي ، أقملي عن نشيد الرعاة  
« قال هذا — ثم لم يقل شيئاً . وكان يود أفرديتي  
أن ترفعه ؛ ولكن ربات الأقدار  
قطعت حبل حياته ، فهوى دفنيس

في نهر الموت وجرفه التيار ، وانقل الدرودور على رأسه  
رأس من كانت تحبه ربات الشعر بأجمعها  
رأس من لم تغضب منه حور الغاب «  
يا ربات الشعر ، ألقى ، ألقى عن نشيد الرعاة (٢٧) .

وتواصل الأنشودة الثانية موضوع الحب ، ولكنها تواصله في نغمة أعنف  
من هذه النغمة . وتقص كيف أغوى دلفيس Delphis سميثا Simaetha علماء  
سرقوسة ثم هجرها فأخذت تستثير حبه بالتعاويد ، ورحيق العشاق ، وتقول إنها  
اعتزمت أن تتجرع السم إذا عجزت عن كسب حبه . وتقف تحت النجوم  
وتصف لسيليني Selene إلهة القمر ما دب في قلبها من الغيرة حين رأت دلفيس  
يسير مع رفيقته :

وماكدنا نصل إلى منتصف الطريق عند مسكن ليكون Lycon  
حتى شاهدت دلفيس مقبلا مع أودانوبوس Eudanippus  
وكانت وجنات البقي والفتاة وذقناهما  
أنصع بياضا من القسوس حين يكمل نماؤه  
نعم ، وصدرهما أكثر تألوا منك يا سيليني ،  
يدلان على أنهما قد أقبلتا من كدح المصارعين النيبيل .  
فكرى في حبي ، وفكرى من أين جاء ، أنت ياسيدة سيليني .  
فلما رأيتهما ، استشطت غضبا ، واتقدت نار الغيرة في صدري  
فاكتوى بنار الحب الضائع قلبي . وذبل جمالي ولم أعد  
أرقب المراكب حين تمر ، ولم أدر كيف عدت إلى داري  
لأن آفة كريمة ، أو مرضاً لافحا ، قد قضى عليّ ،  
وظللت أربعة أيام مسجى على فراشي وعشر ليال قضيتها في ألم ممض .  
فكرى في حبي ، وفكرى من أين جاء ، أنت ياسيدة سيليني

وكثيراً ما جفت نضرة جسمي واصفرت كاهشمي الخاف ،  
أجل وتساقط شعر رأسي ، وكل ما كتته قبلا  
لم يبق منه إلا جلد وعظم ، وما من إنسان إلا لحأت إليه ،  
وما من طريق قامت فيه عجوز شطاء تتلو فيه رقية حب إلا سلكته .  
لكنني لم أجد عزاء ، ومرت الأيام سراعا .  
فكرى في حبي ، وفكرى من أين جاء ، أنت ياسيدة سيليني  
والأنشودة الثانية تصل بنا إلى الخورية أمرلس Amaryllis ومفاتها البعيدة  
المثال ، وتصل بنا الزابعة إلى الراعي كريدون Corydon والسابعة إلى لسداس  
Lycidas راعي المعز الشعري— وتلك كلها أسماء قد تغنى بها آلاف الشعراء من  
فرجيل إلى تينسن Tennyson . ولقد أصبح أولئك الشعراء الريفيون مثلاً عليا  
ينطقون بأجل الأشعار اليونانية ، وفي وسع كل منهم أن يقرض أبياتا سداسية  
الأوتاد أجل من أبيات هومر ؛ ولكننا قد علمنا أن تراهم ، الذي لا يكا ديدرك  
العقل جماله كأنه تقليد مألوف ، متوسط القدر حين نستسلم إلى ما في أغانيهم من  
نعمة حزينه . بيد أن تاوقريطوس بعيدهم إلينا أشخاصا واقعيين يحدثنا عن  
ثيابهم التي تفوح منها رائحة أجسامهم ، وحين يذكر لنا فحش أفكارهم ؛  
ذلك أن في فكاهاتهم من الفجور ما يحط بعض الشيء من رقيق عواطفهم  
فيجعلهم أناسا حقيقيين . وجملة القول أن هذا الشعر أكمل شعر يوناني كتب  
بعد يورپديز ، وهو دون غيره من الشعر الهلنستي الباقي إلى يومنا هذا الشعر  
الذي تسرى فيه أنفاس الحياة .

## الفصل الخامس

### بوليبوس

إذا كان العصر الهلنستي لم يلهم إلا شاعراً واحداً ، فإنه قد أخرج مقداراً من النثر مختلف الأنواع لم يخرج مثله عصر آخر قبله . فلهذا ابتدئنا التحدث الخيالي وابتدعت المقالة ، وذاترة المعارف ، وواصل فيه الكتاب لإخراج التراجم القصيرة الواضحة ، وأضاف الأدب اليوناني في العهد الروماني الذي تلا هذا العهد الذي تمتحدث عنه الموعظة والرواية القصصية . أما الخطابة فكانت في دور الاحتضار لأنها كانت تعتمد على النزاع السياسي ، والتقاضى أمام المحاكم الشعبية ، وعلى حق الناس الديمقراطي في أن يتكلموا ، وأصبحت الرسالة الأداة المحبوبة لنقل الأفكار سواء في التخاطب أو في الأدب ، ففي هذا العصر تفرقت صور الرسائل وعباراتها التي نجدتها في أقوال شيشرون ، بل تفرقت أيضاً الديباجة الشهيرة التي كان يستمسك بها أجدادنا ويجلوها : « أرجو أن يصلك هذا وأنت بخير كما تركتني ، (٢٨) .

وازدهرت كتابة التاريخ ، فقد كتب بطليموس الأول ، وأراتوس الأخي وبيرس الإيروسي مذكرات عن حروبهم ، فوضعوا بذلك تقليداً بلغ غايته في قيصر . وكتب مانيتون الكاهن المضرى الأكبر باللغة اليونانية حوليات مصر Aigyptaka التي جمعت الفراعنة بطريقة تعسفية إلى حد ما في أسر مالكة لاتزال هي التقسيم المتبع حتى اليوم . وأهدى بروسس كبير الكهنة الكلدان إلى أنثيوخوس الأول تاريخاً لبابل معتمداً على السجلات المسماة . وأدهش مجسثينز Megasthenes سفير سلوقس الأول لدى شنلراجوبتا موريا Chandragupta Mourya العالم اليوناني بكتاب عن الهند أخرجه حوالي عام ٣٠٠ . وجاء في فقرة موحية من هذا الكتاب : « إن بين البراهمة طائفة من الفلاسفة . . .

تعتقد أن الله هو الكلمة ، وهم لا يقصدون بها الكلام المنطوق بل يقصدون حديث العقل (٢٩) . وهنا أيضاً نجد عقيدة الكلمة التي قدر لها أن تكون ذات أثر عميق في الدين المسيحي . وقام تهاوس الترومنوي *Timoeus of Tauromenium* بعد أن نفاه أجنكلينز *Agathocles* من صقلية (٣١٧) برحلات واسعة في أسبانيا وغالة ، ثم ألقى عصا التسيار في أثينة وكتب فيها كتاباً عن صقلية وعن الغرب . وكان طالباً مجداً ، بلغ من حرصه على أن يدون في كتابه هذا كل شيء أن لقبه بعض منافسيه « جامع الأسماك العجوز » (٣٠) . وقد بذل غاية جهده في أن يصل إلى تواريخ صحيحة للحوادث التي رواها ، حتى عثر على طريقة تأريخ هذه الحوادث بدورات الألعاب الأولمبية . وكان شديد النقد لمن سبقه من المؤرخين ، وكان من حسن حظّه أن مات قبل أن يشهد هجوم بوليبيوس الوحشي على كتابه (٣١) .

وأعظم المؤرخين في العصر الهلنستي واليوناني ، والمؤرخ الوحيد الخليق بأن يوضع إلى جانب هيرودوت وتوكيديدس ، هو بربليوس . وكان مولده في أركاديا عام ٢٠٨ . وكان والده ليكورتاس *Lycortas* أحد زعماء العصبة الآخية ، لقد اختير في مهمة سياسية في رومة عام ١٨٩ ، وعين اسبرتيموس في عام ١٨٤ . ونشأ ابنه في الجو السياسي ، ودرّب للجندية بإشراف فيلوييمين ، واشترك في حروب الرومان ضد الغالين في آسية الصغرى ، وسافر مع والده في بعثة سياسية إلى مصر ( ٢٨٠ ) ، واختير ليكون قائداً لفرسان العصبة الآخية ( هباركوس *Hipparchos* ) في عام ١٦٩ (٣٢) ، لكن تفوقه هذا قد جر عليه كثيراً من المتاعب : ذلك أنه حين أراد الرومان أن يعاقبوا العصبة الآخية لتأييدها برسوس ضدهم أخذوا ألفاً من زعماء الآخيين رهائن إلى رومة ، وكان منهم بوليبيوس ( ١٦٧ ) . وظل في المنفى ستة عشر عاماً يعانى فيها آلام النفي ، ومنها كما يقول هو نفسه « ضياع الروح المعنوية والشلل العقلي الذي بلغ أقصى حد » (٣٣) . ولكن سبيرو الأصغر بذل له مودته ، وضمه إلى الدائرة السبيونية التي كانت تشمل الرومان المتعلمين ، وأقنع مجلس الشيوخ :

حين كان يشقت غيره من المنفيين في أنحاء إيطاليا ، أن يسمح بأن يعيش  
بوليبوس معه في رومة . ورافق سيبو في كثير من الوقائع الحربية ، وأسدى  
إليه نصائح عسكرية قيمة ، وارتاد له سواحل أسبانيا وأفريقية ، ووقف إلى  
جانبه حين أحرق رومة (١٤٦) . وكان قبل ذلك قد نال حريته في عام ١٥١ ،  
واختير في عام ١٤٩ ليمثل رومة في تنظيم الوفاق الذي تم بين المدن اليونانية  
وبين مجلس الشيوخ الروماني ، سيدها البعيد عنها ، وما من شك في أنه قد قام  
بهذا الواجب البغيض على خير وجه ، لأن كثيراً من المدن قد كرهته بإقامة  
أنصاب تذكارية له ، وإن لم يكن في وسع الإنسان أن يعرف متى يشعر الناس  
بفضل أحد عليهم . وبعد أن عاش بوليبوس ستين عاماً في جد متواصل اعتزل  
هذا النوع من العمل ليكتب كته الثلاثة : رسالة في الفنون العسكرية ، وحياة  
فيلويمين ، وكتاب التواريخ الضخم . ومات كما يموت السادة الأشراف ،  
فقد سقط عن ظهر جواده وهو عائد من رحلة صيد ، بعد أن بلغ الثانية  
والثمانين من العمر .

ولسا نعرف قط رجلاً كتب التاريخ مستنداً إلى أوسع مما استند إليه  
بوليبوس من علم ، وأسفار ، وتجارب . . وكانت الخطة التي وضعها لكتابه  
خطة واسعة النطاق ، فلم يكن يقصد أن يكتب تاريخ بلاد اليونان فحسب ، بل  
كان يبغى كتابة تاريخ « العالم كله » ( أى أمم البحر الأبيض المتوسط ) من عام  
٢٢١ إلى ١٤٦ ق. م . « تلك هي الخطة التي وضعها ، ولكن كل شيء يتوقف على  
ما تحبوني به الأقدار من حياة تطول حتى أخرجها إلى حيز الوجود » (٣٤) . وكان  
يشعر بحق أن رومة هي مركز دائرة التاريخ السياسي في الفترة التي يريد أن  
يوّرخها ، ولهذا أسبغ على كتابه وحدة جامعة إذ جعل رومة محور حوادثه ،  
ودرس بتشوف الرجل الدبلوماسي الوسائل التي استخدمتها رومة ، والتي  
تدعى كما يدعى البريطانيون أن الظروف هي التي ساقها لها على غير قصد  
منها ، للسيطرة على عالم البحر الأبيض المتوسط (٣٥) . وكان شديد الإعجاب

بالرومان ، لأنه شاهدتهم في عصر مجدهم ، ولأن أكثر من عرفهم منهم هم خيرهم في جماعة سبيو . وكان يشعر أنهم يتصفون بتلك الصفات التي لا توجد في الخلق ولا في الحكم اليوناني ، والتي كان عدم وجودها في اليونان سبباً في القضاء عليهم . وإذ كان هو من أبناء الأشراف وكان صديقاً للأشراف ، فإنه لم يكن يعطف قط على المراحل المتأخرة من الديمقراطية اليونانية التي لم تكن في رأيه غير حكم الغوغاء . وكان التاريخ السياسي يبدو له دورة متكررة من الملكية المطلقة (أو الدكتاتورية) ، والأرستقراطية ، والأجركية ، والديمقراطية ؛ ثم الملكية المطلقة مرة أخرى . وكانت خير طريقة في رأيه للنجاة من هذه الدورة هي طريق « الدستور المختلط » الشبيه بدستور ليقورغ أو دستور رومة - وهو الذي يقضى بوجود مواطنين يستمتعون بحقوق سياسية ولكنها حقوق محدودة ، ويختارون كبار الموظفين ، ولكن سلطانهم يحدد سلطان مجلس الشيوخ الأرستقراطي الدائم (٣٧) . وكانت هذه النظرة هي التي اهتدى بها في كتابة تاريخ عصره .

وبوليبيوس هو « مؤرخ المؤرخين » لأنه يهتم بطريقته كما يهتم بموضوعه . وهو يميل إلى التحدث عن الخطوة التي يسير عليها ، ويعمد إلى التفكير في كل فرصة تتاح له . وهو يصور مؤهلاته على أنها خير المؤهلات ومثلها الأعلى ، ويصر على أن التاريخ ينبغي أن يكتبه أولئك الذين رأوا بأعينهم - أو استشاروا غيرهم ممن رأوا بأعينهم - ما يصفونه من الحوادث . يندد بتياوس لأنه اعتمد على أذنيه بدل اعتمادهم على عينيه ، ويتحدث بفخر وإعجاب عن أسفاره في البحث عن المعلومات ، والوثائق ، والحقائق الجغرافية ، ويذكر لنا كيف اخترق جبال الألب وهو عائد من أسبانيا إلى إيطاليا من نفس الممر الذي اخترقه هنيبال ، وكيف نزل إلى نهاية لإصبح قدم إيطاليا ليحل رموز نقش تركه هنيبال في بروتيوم (٣٧) . ويقول إنه يعززم أن يجعل تاريخه دقيقاً بقدر ما تسمح به « ضخامة عمله ، والطريقة الشاملة التي عالجها بها » (٣٨) . وهو في تاريخه رجل عقل الزرعة واقعيها ، ينفذ فكره في ألفاظ الدبلوماسيين

الأخلاقية ليعرف ما تهدف إليه خططهم من اعتراضات حقيقية ، ويسره أن يدرك كيف يخدع الناس بسهولة أفرادا كانوا أو جماعات ، ويخدعون أكثر من مرة ، بنفس الحيل والأساليب التي خدعوا بها من قبل (٤٠) . ويقول في عبارة شائقة استيق بها مبادئ مكيفلى : « قلما يتفق العمل الخير مع العمل النافع ، وما أقل من يستطيعون الجمع بين العملين والتوفيق بينهما » (٤١) . وهو يقبل عقيدة الرواقين الدينية التي تقول بوجود قوة إلهية مدبرة ولكنه يختلف مجرد عطف على الطقوس الدينية البائدة في عصره ، ويسخر ضاحكا من عقيدة تدخل القوى غير الطبيعية في شئون العالم (٤٢) . ويعترف بما للمصادفات من شأن في التاريخ ، وما لعظاء الرجال من أثر فعال في بعض الأحيان ، ولكنه لا يتردد في أن يكشف عن تسلسل العلال والمعلولات تسلسلا حقيقيا خارجا في كثير من الأحيان عن إرادة الآدميين ، وبذلك يكون التاريخ مصباحا مضيئا للعقول في الحاضر والماضي (٤٣) . « ليس شيء أسرع تصحيحا لسلك الناس من معرفة الماضي » و « خير تعليم وإعداد للحياة السياسية النشطة هو دراسة التاريخ » (٤٤) ، « والتاريخ ، والتاريخ وحده ، هو الذي ينضج عقولنا ، ويهيئنا للنظر إلى الأشياء نظرة صحيحة مهما تكن الأزمان أو سير الحوادث » (٤٥) . وهو يرى أن خير طريقة لفهم التاريخ هي أن ينظر إلى حياة الأمة على أنها وحدة عضوية ، ثم تضم قصة كل جزء من أجزائها إلى تاريخ حياة الأمة بأجمعه . والذي يعتقد أنه إذا درس التواريخ منفصلة بعضها عن بعض يستطيع أن ينظر نظرة صحيحة إلى التاريخ بأجمعه ليشبه في رأي ذلك الرجل الذي نظر إلى أطراف حيوان كان من قبل حيا وجميلا ، ثم يتصور أنه كمن شاهد بعينه الحيوان نفسه في جميع حركاته وأدرك ما فيها من رشاقة وجمال » (٤٦) .

وقد أبى الدهر على خمسة من الكتب التي قسم إليها پوليبوس تواريخه ، وأنهى المختصرون قطعاً متفرقة قيمة من الكتب الباقية . ومما يؤسف له أشد

الأسف أن لإخراج هذه الفكرة العظيمة إلى حيز الوجود قد أفسدته لغة ذلك الوقت اليونانية الفاسدة ، ونقده المر لغيره من المؤرخين ، واقتصاره تقريباً على شئون الحرب والسياسة ، وتقسيمه قصته تقسيماً سخيفاً إلى دورات أولمبية ، وكتابة تاريخ جميع أمم البحر الأبيض المتوسط في كل دورة. مقدارها أربع سنوات ، وما أدى إليه ذلك من استطرادات مملّة ومن انعدام التسلسل إلى حد يحير القارئ ويضله . ويسمو پوليبوس في قصته أحياناً إلى البلاغة المسرحية ، ولكنه يتجنب بشدة الأسلوب الخطابي المزخرف الذي كان شائعاً بين من سبقوه مباشرة من الكتاب ، حتى أنه ليفخر بثقل أسلوبه وخلوه من الهجة (٤٨) . وفي ذلك يقول أحد النقاد الأقدمين . « لا أعرف قط رجلاً قرأ كتابه من أوله إلى آخره » (٤٩) . ولقد كاد العالم أن ينساه ، ولكن المؤرخين سيظلون دهرأ طويلاً بدرسون كتابه لأنه كان من أعظم أصحاب النظريات في كتابة التاريخ وأعظم من طبقوها في كتاباتهم ، ولأنه جرؤ على أن يكون واسع الأفق في كتابه ، وأن يكتب « تاريخاً عاماً » ؛ ولأنه فوق هذا وذاك أدرك أن الحقائق وحدها لا قيمة لها إلا مع شرحها وتفسيرها ، وأن الماضي لا قيمة له إلا من حيث هو جذورنا المتأصلة والضوء الذي ينير لنا حاضرنا ومستقبلنا .